

سورة الإنسان

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن تُطْفِئَةِ أَمْشَاجٍ تَبَيَّلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (3) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيراً (4) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِن كَاسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (5) عَنِيباً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (6) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (7) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (9) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً غُوباً قَمَطِيراً (10) قَوَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَصْرَهُ وَشُرُوراً (11) وَجَزَّاهُمْ يَمَا صَيَّرُوا حِجَّةً وَحَرِيراً (12) مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً (13) وَذَاتِيَّةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَمْطُفُهَا تُدْبِلُهَا (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآيَاتِهِ مِّن فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (15) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَنِيباً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْشُوراً (19) وَإِذَا رَأَيْتَ تَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكًا كَبِيراً (20) عَلَيْهِمْ نَبَاتٌ سُندُسٌ حُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوعٌ آسَاوَرٌ مِّن فَضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً (22) إِنَّا نَحْنُ تَرَاتُماً عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23) قَاصِرٌ لِّحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطْعُ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كُفُوراً (24) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً تَبِيلًا (27) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا بَشِئْنَا بَدَلْنَا أَمْنَاهُمْ بِتَبِيلٍ (28) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30) يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالطَّالِبِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31)

الشرح :

من الآية 1 الى الآية 2

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن تُطْفِئَةِ أَمْشَاجٍ تَبَيَّلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (2)

سورة الإنسان

تعريف بسورة الإنسان

في بعض الروايات أن هذه السورة مدنية , ولكنها مكية ; ومكيته ظاهرة جدا , في موضوعها وفي سياقها , وفي سماتها كلها . لهذا رجحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيته . بل نحن نلمح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكي . . تنشي بهذا صور النعيم الحسية المفصلة الطويلة , وصور العذاب الغليظ , كما يشي به توجيه الرسول [ص] إلى الصبر لحكم ربه , وعدم إطاعة أثم منهم أو كفور ; مما كان يتنزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها في مكة , مع إمهال المشركين وتثبيت الرسول [ص] على الحق الذي نزل عليه , وعدم الميل إلى ما يدهنون به . كما جاء في سورة القلم , وفي سورة المزمل , وفي سورة المدثر , مما هو قريب من التوجيه في هذه السورة . . واحتمال أن هذه السورة مدنية - في نظرنا - هو احتمال ضعيف جدا , يمكن عدم اعتباره !

والسورة في مجموعها هتاف رخي ندي إلى الطاعة , والالتجاء إلى الله , وابتغاء رضاه , وتذكر نعمته , والإحساس بفضله , وانقضاء عذابه , واليقظة لابتنائه , وإدراك حكمته في الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء . .

وهي تبدأ بلمسة رفيقة للقلب البشري: أين كان قبل أن يكون ؟ من الذي أوجده ؟ ومن الذي جعله شيئا مذكورا في هذا الوجود ؟ بعد أن لم يكن له

ذكر ولا وجود: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟).

تلوها لمسة أخرى عن حقيقة أصله ونشأته , وحكمة الله في خلقه , وتزويده بطاقاته ومداركه: (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) .

ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق , وعونه على الهدى , وتركه بعد ذلك لمصيره الذي يختاره: (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) .

وبعد هذه اللمسات الثلاث الموحية , وما تثيره في القلب من تفكير عميق , ونظرة إلى الوراء . ثم نظرة إلى الأمام , ثم التحرج والتدبر عند اختيار الطريق . . بعد هذه اللمسات الثلاث تأخذ السورة في الهتاف للإنسان وهو على مفارق الطريق لتحذيره من طريق النار . . وترغيه في طريق الجنة , بكل صور الترغيب , وبكلهواتف الراحة والمتاع والنعيم والتكريم: إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيра . .

وقبل أن تمضي في عرض صور المتاع ترسم سمات هؤلاء الأبرار في عبارات كلها انعطاف ورقة وجمال وخشوع يناسب ذلك النعيم الهائى الرغيد: (يوقون بالنذر , ويخافون يوما كان شره مستطيرا , ويطعمون الطعام - على حبه - مسكينا ويطيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) .

ثم تعرض جزاء هؤلاء القائمين بالعزائم والتكاليف , الخائفين من اليوم العبوس القمطرير , الخيرين المطعمين على حاجتهم إلى الطعام , يتغنون وجه الله وحده , لا يريدون شكورا من أحد , إنما يتقون اليوم العبوس القمطرير !

تعرض جزاء هؤلاء الخائفين الوجلين المطعمين المؤثرين . فإذا هو الأمن والرخاء والنعيم اللين الرغيد:

فوقاهم الله شر ذلك اليوم , ولقاهم نضرة وسرورا , وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير , قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا , عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق , وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا .

فإذا انتهى معرض النعيم اللين الرغيد المطمئن الهائى الودود اتجه الخطاب إلى رسول الله [ص] لتثبيته على الدعوة - في وجه الإغراض والكفر والتكذيب - وتوجيهه إلى الصبر وانتظار حكم الله في الأمر ; والاتصال بربه والاستمداد منه كلما طال الطريق: (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم أثما أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا , ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) . .

ثم تذكيرهم باليوم الثقيل الذي لا يحسبون حسابه ; والذي يخافه الأبرار ويتقونه , والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله , الذي خلقهم ومنحهم ما هم فيه من القوة , وهو قادر على الذهاب بهم , والإتيان بقوم آخرين ; لولا تفضله عليهم بالبقاء , لتمضي مشيئة الابتلاء . ويلوح لهم في الختام بعاقبة هذا الابتلاء: إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا . نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا . إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله , إن الله كان عليما حكيما . يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما . .

تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقدير الله في هذه النشأة , على أساس الابتلاء , وتختتم ببيان عاقبة الابتلاء , كما اقتضت المشيئة منذ الابتداء . فتوحي بذلك البدء وهذا الختام بما وراء الحياة كلها من تدبير وتقدير , لا ينبغي معه أن يمضي الإنسان في استهتاره . غير واع ولا مدرك , وهو مخلوق لينلى , وموهوب نعمة الإدراك لينجح في الابتلاء .

وبين المطلع والختام ترد أطول صورة قرآنية لمشاهد النعيم . أو من أطولها إذا اعتبرنا ما جاء في سورة الواقعة من صور النعيم , وهو نعيم حسي في جملته , ومعه القبول والتكريم , وهو بتفصيله هذا وحسيته يوحى بمكبته , حيث كان القوم قريبي عهد بالجاهلية , شديدي التعلق بمتاع الحواس , يبهزهم هذا اللون ويعجبهم , ويثير تطلعاتهم ورغبتهم . وما يزال هذا اللون من المتاع يثير تطلع صنوف من الناس , ويصلح جزاء لهم يرضي أعماق رغباتهم . والله أعلم بخلقهم ما يصلح لهم وما يصلح قلوبهم , وما يليق بهم كذلك وفق تكوينهم وشعورهم . وهناك ما هو أعلى منه وأرق كالذي جاء في سورة القيامة: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) . . والله أعلم بما يصلح للعباد في كل حال .

الدرس الأول: 1 - 3 تذكير الإنسان ببدايته وابتلائه وازدواجية استعداده

(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ? إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) . .

هذا الاستفهام في مطلع السورة إنما هو للتقرير ; ولكن وروده في هذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه: ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ? ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها ? ثم ألا يفعل تدبرها في نفسه شيئا من الشعور باليد التي دفعته إلى مسرح الحياة , وسلطت عليه النور , وجعلته شيئا مذكورا بعد أن لم يكن شيئا مذكورا ?

إنها إحياءات كثيرة تنبض من وراء صيغة الاستفهام في هذا المقام . وهي إحياءات رفيعة وعميقة تثير في النفس تأملات شتى:

واحدة منها تتجه بالنفس إلى ما قبل خلق الإنسان ووجوده ابتداء . يعيش فيها مع هذا الكون وقد خلا من الإنسان . . كيف تراه كان ? . . والإنسان مخلوق مغرور في نفسه وفي قيمته , حتى لينسى أن هذا الكون كان وعاش قبل أن يوجد هو بأدهار وأزمان طوال . ولعل الكون لم يكن يتوقع خلق شيء يسمى "الإنسان" . . حتى انبثق هذا الخلق من إرادة الله فكان !

وواحدة منها تتجه إلى اللحظة التي انبثق فيها هذا الوجود الإنساني . وتضرب في تصورات شتى لهذه اللحظة التي لم يكن يعلمها إلا الله ;

والتي أضافت إلى الكون هذه الخليقة الجديدة , المقدر أمرها في حساب الله قبل أن تكون ! المحسوب دورها في خط هذا الكون الطويل !

وواحدة منها تتجه إلى تأمل يد القدرة وهي تدفع بهذا الكائن الجديد على مسرح الوجود ; وتعدده لدوره , وتعد له دوره , وتربط خيوط حياته بمحور الوجود كله ; وتهيئ له الظروف التي تجعل بقاءه وأداء دوره ممكنا وميسورا ; وتتابعه بعد ذلك في كل خطوة , ومعها الخيط الذي تشده به إليها مع سائر خيوط هذا الكون الكبير !

وإحباءات كثيرة وتأملات شتى , يطلقها هذا النص في الضمير . . ينتهي منها القلب إلى الشعور بالقصد والغاية والتقدير , في المنشأ وفي الرحلة وفي المصير .

فأما امتداد هذا الإنسان بعد ذلك وبقاؤه فكانت له قصة أخرى:

(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) . .

والأمشاج: الأخلاط . وربما كانت هذه إشارة إلى تكون النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح . وربما كانت هذه الأخلاط تعني الوراثة الكامنة في النطفة , والتي يمثلها ما يسمونه علميا "الجينات" وهي

من الآية 3 الى الآية 6

إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَيَسْعِيرًا (4) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَنْشَرُّونَ مِنْ كَاسٍ كَانَ مَرْجُوهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6)

وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولا ولصفات الجنين العائلية أخيرا . وإليها يعزى سير النطفة الإنسانية في رحلتها لتكوين جنين إنسان , لا جنين أي حيوان آخر . كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة في الأسرة . . ولعلها هي هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى . .

خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج , لا عينا ولا جرافا ولا تسلية , ولكنه خلق ليبتلي ويمتحن ويختبر . والله سبحانه يعلم ما هو ؟ وما اختباره ؟ وما ثمرة اختباره ؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود , وأن تترتب عليه آثاره المقدره في كيان الوجود , وأن تتبعه آثاره المقدره . ويجزى وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه .

ومن ثم جعله سميعا بصيرا . أي زوده بوسائل الإدراك , ليستطيع التلقي والاستجابة . وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار . ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار . .

وإذن فإن إرادة الله في امتداد هذا الجنس وتكرر أفراده بالوسيلة التي قدرها , وهي خلقته من نطفة أمشاج . . كانت وراءها حكمة . وكان وراءها قصد . ولم تكن فلتة . . كان وراءها ابتلاء هذا الكائن واختباره . ومن ثم وهب الاستعداد للتلقي والاستجابة , والمعرفة والاختبار . . وكان كل شيء في خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه في الحياة . . بمقدار !

ثم زوده إلى جانب المعرفة , بالقدرة على اختيار الطريق , وبين له الطريق الواصل . ثم تركه ليختاره , أو ليضل ويشرد فيما وراءه من طرق لا تؤدي إلى الله:

(إنا هديناه السبيل: إما شاكرا وإما كفورا). .

وعبر عن الهدى بالشكر . لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدي , بعد إذ يعلم أنه لم يكن شيئا مذكورا , فأراد ربه له أن يكون شيئا مذكورا . ووهب له السمع والبصر . وزوده بالقدرة على المعرفة . ثم هداه السبيل . وتركه يختار . . الشكر هو الخاطر الأول الذي يرد على القلب المؤمن في هذه المناسبة . فإذا لم يشكر فهو الكفور . . بهذه الصيغة الموعلة في الدلالة على الكفران .

ويشعر الإنسان بجدية الأمر ودقته بعد هذه اللمسات الثلاث . ويدرك أنه مخلوق لغاية . وأنه مشدود إلى محور . وأنه مزود بالمعرفة فمحاسب عليها . وأنه هنا ليبثلى ويختار الابتلاء . فهو في فترة امتحان يقضيها على الأرض , لا في فترة لعب ولهو وإهمال ! ويخرج من هذه الآيات الثلاث القصار بذلك الرصيد من التأملات الرقيقة العميقة , كما يخرج منها مثقل الظهر بالتبعة والجد والوقار في تصور هذه الحياة , وفي الشعور بما وراءها من نتائج الابتلاء ! وتغير هذه الآيات الثلاث القصار من نظرتهم إلى غاية وجوده , ومن شعوره بحقيقة وجوده , ومن أخذه للحياة وقيمها بوجه عام .

الدرس الثاني: 4 - 22 من صفات الأبرار وصور من نعيم الجنة لهم

ومن ثم يأخذ في عرض ما ينتظر الإنسان بعد الابتلاء , واختياره طريق الشكر أو طريق الكفران .

فأما ما ينتظر الكافرين , فيجمله إجمالاً , لأن ظل السورة هو ظل الرخاء الظاهر في الصورة والإيقاع . وظل الهتاف المغري بالنعيم المريح . فأما العذاب فيشير إليه في إجمال:

(إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً). .

سلاسل للأقدام , وأغلالاً للأيدي , ونارا تتسعر يلقي فيها بالمسلسلين المغلولين !

ثم يسارع السياق إلى رضاء النعيم:

من الآية 7 الى الآية 10

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (7) وَيُطْعَمُونَ مِنَّا عَلَىٰ حُبِّهِمْ شُرْبًا وَيَتَّكِمُونَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ وَلَا يَشْرَبُونَ (8) إِنَّهُمْ لَطَائِفُ لِّوَجْهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (9) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا غُيُوبًا فَمُطَرِبًا (10)

(إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا). .

وهذه العبارة تفيد أن شراب الأبرار في الجنة ممزوج بالكافور , يشربونه في كأس تغترف من عين تفجر لهم تفجيرا , في كثرة ووفرة . . وقد كان

العرب يمزجون كؤوس الخمر بالكافور حيناً وبالزنجبيل حيناً زيادة في التلذذ بها , فهاهم أولاء يعلمون أن في الجنة شراباً طهوراً ممزوجاً بالكافور , على وفر وسعة . فأما مستوى هذا الشراب فمفهوم أنه أحلى من شراب الدنيا , وأن لذة الشعور به تتضاعف وترقى , ونحن لا نملك في هذه الأرض أن نحدد مستوى ولا نوعاً للذة المتاع هناك . فهي أوصاف للتقريب . يعلم الله أن الناس لا يملكون سواها لتصور هذا الغيب المحجوب .

والتعبير يسميهم في الآية الأولى (الأبرار) ويسميهم في الآية الثانية (عباد الله) . . إيناساً وتكريماً وإعلاناً للفضل تارة , وللقرب من الله تارة , في معرض النعيم والتكريم .

ثم يعرف بهؤلاء الأبرار عباد الله الذين قسم لهم هذا المتاع:

(يوفون بالنذر , ويخافون يوماً كان شره مستطيراً , ويطعمون الطعام - على حبه - مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً) . .

وهي صورة وضيفة شغافة لقلوب مخلصه جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة , مع رحمة ندية بعباده الضعاف , وإيثار على النفس , وتخرج وخشية لله , ورغبة في رضاه , وإشفاق من عذابه تبعثه التقوى والجد في تصور الواجب الثقيل .

(يوفون بالنذر) فيفعلون ما اعتزموا من الطاعات , وما التزموا من الواجبات . فهم يأخذون الأمر جداً خالصة لا يحاولون التغلث من تبعاته , ولا التفصي من أعبائه , ولا التخلي عنه بعد اعتزامه . وهذا معنى أنهم يوفون بالنذر . فهو أعم من المعنى العرفي المتبادر من كلمة (النذر) .

(ويخافون يوماً كان شره مستطيراً) . . فهم يدركون صفة هذا اليوم , الذي يتفشى شره ويصيب الكثيرين من المقصرين والمسيئين . فيخافون أن ينالهم شيء من شره . وهذه سمة الاتقياء , الشاعرين بثقل الواجب وضخامة التكاليف , الخائفين من التقصير والقصور , مهما قدموا من القرب والطاعات .

(ويطعمون الطعام - على حبه - مسكيناً ويتيماً وأسيراً) . .

وهي تصور شعور البر والعطف والخير ممثلاً في إطعام الطعام , مع حبه بسبب الحاجة إليه . فمثل هذه القلوب لا يقال عنها: إنها تحب الطعام الذي تطعمه للضعاف المحاويج على اختلاف أنواعهم . إلا أن تكون في حاجة هي إلى هذا الطعام , ولكنها تؤثر به المحاويج .

وهذه اللفتة تشي بقسوة البيئة في مكة بين المشركين ; وأنها كانت لا تفضي بشيء للمحاويع الضعاف ; وإن كانت تبذل في مجالات المفارقة الشيء الكثير . فأما الأبرار عباد الله فكانوا واحة ظليلة في هذه الهاجرة الشحيحة . وكانوا يطعمون الطعام بأريحية نفس , ورحمة قلب , وخلوص نية . واتجاه إلى الله بالعمل , يحكيه السياق من حالهم , ومن منطوق قلوبهم .

(إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) .

فهي الرحمة الفائضة من القلوب الرقيقة الرفيقة , تتجه إلى الله تطلب رضاه . ولا تبتغي بها جزاء من الخلق ولا شكرا , ولا تقصد بها استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء . كما تتقي بها يوما عبوسا شديد العبوس , تتوقعه

من الآية 11 الى الآية 18

فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَخَرَّبَهَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ فِيهَا الْأَنْزَالُ لَا تَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (12) وَذَانِبَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ فِيهَا قُلُوبُهُمْ تَذَلُّلًا (14) وَنُطَافٌ عَلَيْهِمْ بَاقِيَةٌ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابُ كَانَتْ قَوَارِيرًا (15) قَوَارِيرَ مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18)

وتخشاه , وتتقيه بهذا الوقاء . وقد دلهم رسول الله [ص] عليه وهو يقول: " اتق النار ولو بشق تمره " . .

وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة النبيلة الكريمة , ووسيلة الإشباع لحاجات المحاويج . ولكن صور الإحسان ووسائله قد تتغير بحسب البيئات والظروف , فلا تظل في هذه الصورة البدائية المباشرة . إلا أن الذي يجب الاحتفاظ به هو حساسية القلوب , وحيوية العاطفة , والرغبة في الخير ابتغاء وجه الله , والتجرد عن البواعث الأرضية من جزاء أو شكر أو نفع من منافع الحياة !

ولقد تنظم الضرائب , وتفرض التكاليف , وتخصص للضمان الاجتماعي , ولإسعاف المحاويج , ولكن هذا إنما يفي بشرط واحد من مزايا الاتجاه الإسلامي الذي ترمز إليه تلك الآيات , والذي توخاه بفريضة الزكاة . . هذا الشرط هو كفاية حاجة المحتاجين . . هذا شرط . . والشرط الآخر هو تهذيب أرواح البادلين , ورفعها إلى ذلك المستوى الكريم . وهو شرط لا يجوز إغفاله ولا التهوين من شأنه فضلا على أن تنقلب المعايير فيوصم ويفجح وبشوه , ويقال: إنه إذلال للآخذين وإفساد للواهبين .

إن الإسلام عقيدة قلوب , ومنهج تربية لهذه القلوب . والعاطفة الكريمة تهذب صاحبها وتنفع من يوجهها إليه من إخوانه . فتفي بشرطي التربية التي يقصد إليها هذا الدين .

ومن ثم كان ذلك التصوير الكريم لذلك الشعور الكريم .

(فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) . .

يجل السياق بذكر وقايتهم من شر ذلك اليوم الذي كانوا يخافونه , ليطمئنهم في الدنيا وهم يتلقون هذا القرآن ويصدقونه ! ويذكر أنهم تلقوا من الله نضرة وسرورا , لا يوما عبوسا قمطريرا . جزاء وفاقا على خشيتهم وخوفهم , وعلى نداوة قلوبهم ونضرة مشاعرهم .

ثم يمضي بعد ذلك في وصف مناعم الجنة التي وجدوها:

(وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) . . جنة يسكنونها وحريرا يلبسونه .

(متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا). . فهم في جلسة مريحة مطمئنة والجو حولهم رخاء ناعم دافئ في غير حر , ندي في غير برد . فلا شمس تلهب النسائم , ولا زمهرير وهو البرد القارس ! ولنا أن نقول: إنه عالم آخر ليست فيه شمسا هذه ولا شمس أخرى من نظائرها . . وكفى !

(ودانية عليهم ظلالها . وذلت قطوفها تذليلا). . وإذا دنت الظلال ودنت القطوف فهي الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الخيال !

فهذه هي الهيئة العامة لهذه الجنة التي جرى الله بها عباده الأبرار الذين رسم لهم تلك الصورة المرهفة اللطيفة الوضيئة في الدنيا . . ثم تأتي تفاصيل المنافع والخدمات . .

ويطاف عليهم بآنية من فضة , وأكواب كانت قوارير , قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسيلا . .

فهم في متاعهم . متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الدانية والجو الرائق . . يطاف عليهم بأشربة في آنية من فضة , وفي أكواب من فضة كذلك , ولكنها شفة كالقوارير , مما لم تعهده الأرض في آنية الفضة . وهي بأحجام مقدرة تقديرا يحقق المتاع والجمال . ثم هي تمزج بالزنجبيل كما مزجت مرة بالكافور .

من الآية 19 الى الآية 22

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنْثُورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيرًا (20) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضِرَ لَخْضَرٍ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوعٌ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاءَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا (22)

وهي كذلك تملأ من عين جارية تسمى سلسيلا , لشدة عذوبتها واستساغتها لدى الشاربين !

وزيادة في المتاع فإن الذين يطوفون بهذه الأواني والأكواب بالشراب هم غلمان صباح الوجوه , لا يفعل فيهم الزمن , ولا تدركهم السن ; فهم مخلدون في سن الصباحة والصبا والوضاءة . وهم هنا وهناك كاللؤلؤ المنثور:

(ويطوف عليهم ولدان مخلدون , إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا). .

ثم يجمال السياق خطوط المنظر , ويلقي عليه نظرة كاملة تلخص وقعه في القلب والنظر:

(وإذا رأيت - ثم - رأيت نعيما وملكا كبيرا). .

نعيما وملكا كبيرا . هو الذي يعيش فيه الأبرار المقربون عباد الله هؤلاء , على وجه الإجمال والعموم ! ثم يخص مظهرها من مظاهر النعيم والملك الكبير ; كأنه تحليل لهذا الوصف وتفسير:

(عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق , وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا). .

والسندس الحرير الرقيق , والإستبرق الحرير السميك المبطن . . وهم في هذه الزينة وهذا المتاع , يتلقونه كله من (ربهم) فهو عطاء كريم من معط كريم . وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعيم !

ثم يتلقون عليه الود والتكريم:

(إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا). .

يتلقون هذا النطق من الملاً الأعلى . وهو يعدل هذه المناعم كلها , ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها . .

وهكذا ينتهي ذلك العرض المفصل والتهافت الموحى للقلوب , التهافت إلى ذلك النعيم الطيب والفرار من السلاسل والأغلال والسعير . . وهما طريقان , طريق مؤد إلى الجنة هذه وطريق مؤد إلى السعير !

الدرس الثالث: 23 - 26 إنزال القرآن وتوجيه الدعاة إلى زادهم وهو الإتصال بالله

وبعد انتهاء هذا التهافت إلى الجنة ونعيمها الهنيء الرغيد , يعالج حالة المشركين المصربين على العناد والتكذيب , الذين لا يدركون حقيقة الدعوة , فيسأومون عليها الرسول [ص] لعله يكف عنها , أو عما يؤذيهم منها . وبين المساومة للنبي [ص] وفتنة المؤمنين به وإيذائهم , والصد عن سبيل الله , والإعراض عن الخير والجنة والنعيم . . بين هذا كله يحيى المقطع الأخير في السورة يعالج هذا الموقف بطريقة القرآن الكريم:

(إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا). .

وفي هذه الآيات الأربع تكمن حقيقة كبيرة من حقائق الدعوة الإيمانية . حقيقة ينبغي أن يعيش فيها الدعاة إلى الله طويلا , وأن يتعمقوها تعمقا كاملا , وأن ينظروا بتدبر في مدلولاتها الواقعية والنفسية والإيمانية الكبيرة .

لقد كان رسول الله [ص] يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وحده . وهو لم يكن يواجه في نفوسهم مجرد عقيدة . ولو كان الأمر كذلك لكان أيسر كثيرا . فإن عقيدة الشرك المهلهلة التي كانوا عليها لم تكن من القوة والثبات بحيث يصمدون بها هكذا لعقيدة الإسلام القوية الواضحة البسيطة . إنما كانت الملابس التي تحيط بالعقيدة وبالموقف هي التي تقود إلى تلك المعارضة العنيدة , التي شهدت بها الروايات التاريخية , وحكاها القرآن في مواضع منه شتى . . كانت المكانة الاجتماعية , والاعتزاز بالقيم السائدة في البيئة , وما يتلبس

من الآية 23 الى الآية 23

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23)

بها كذلك من مصالح مادية . . هي العنصر الأول الذي يقود إلى التشبث بالعقيدة الواهية الظاهرة البطلان , في وجه العقيدة القوية الظاهرة الاستقامة . . ثم كانت صور الحياة الجاهلية ومتاعها ولذائدها وشهواتها إلى جانب ذلك تزيد المقاومة والعناد والتأبي على العقيدة الجديدة , وما فيها من اتجاهات أخلاقية وقيم رفيعة , لا تسمح بانطلاق الغرائز والشهوات ; ولا بالحياة العابثة الماجنة المطلقة من كوابح الأخلاق .

وهذه الأسباب - سواء ما يتعلق منها بالمكانة والقيم الاجتماعية والسلطان والمال والمصالح , وما يتعلق منها بالإلف والعادة وصور الحياة التقليدية , وما يتعلق منها بالانطلاق من القيم والقيود الأخلاقية - كانت قائمة في وجه الدعوة الأولى , وهي هي قائمة في وجه الدعوة في كل أرض وفي كل جيل . وهي تمثل العناصر الثابتة في معركة العقيدة , التي تجعلها معركة عنيدة لا تنتهي من قريب ; وتجعل مشاقها وتكاليفها والثبات عليها من أعسر التكاليف .

ومن ثم ينبغي للدعاة إلى دين الله في أي أرض وفي أي زمان أن يعيشوا طويلا في الحقيقة الكبيرة الكامنة في تلك الآيات , وملابسات نزولها على الرسول [ص] فهي ملابسات معركة واحدة يخوضها كل صاحب دعوة إلى الله , في أي أرض وفي أي زمان !

لقد تلقى رسول الله [ص] التكليف من ربه لينذر , وقيل له: (يا أيها المذر . قم فأنذر). . فلما أن نهض بالتكليف واجهته تلك العوامل والأسباب التي تصد القوم عن الدعوة الجديدة , وتثير في نفوسهم التشبث بما هم عليه - على شعورهم بوهنه وهلهته - وتقودهم إلى العناد الشديد , ثم إلى الدفاع العنيد عن معتقداتهم وأوضاعهم ومكانتهم ومصالحهم . ومألوف حياتهم , ولذائدهم وشهواتهم . . إلى آخر ما تهدده الدعوة الجديدة أشد التهديد .

وأخذ هذا الدفاع العنيد صوراً شتى , في أولها إيذاء القلة المؤمنة التي استجابت للدعوة الجديدة , ومحاولة فتنها عن عقيدتها بالتعذيب والتهديد . ثم تشويه هذه العقيدة وإثارة الغبار حولها وحول نبينا [ص] بشتى النهم والأساليب . كي لا ينضم إليها مؤمنون جدد . فمنع الناس عن الانضمام إلى راية العقيدة قد يكون أيسر من فتنه الذين عرفوا حقيقتها وذاقوها !

وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع صاحب الدعوة [ص] طرقاً شتى من الإغراء - إلى جانب التهديد والإيذاء - ليلتقي بهم في منتصف الطريق ; ويكف عن الحملة الساحقة على معتقداتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ; ويصالحهم ويصالحونه على شيء يرتضيه ويرتضونه ! كما تعود الناس أن يلتقوا في منتصف الطريق عند الاختلاف على المصالح والمغانم وشؤون هذه الأرض المعهودة .

وهذه الوسائل ذاتها أو ما يشبهها هي التي يواجهها صاحب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل !

والنبي [ص] ولو أنه رسول , حفظه الله من الفتنة , وعصمه من الناس . . إلا أنه بشر يواجه الواقع الثقيل في قلة من المؤمنين وضعف . والله يعلم منه هذا , فلا يدعه وحده , ولا يدعه لمواجهة الواقع الثقيل بلا عون ومدد وتوجيه إلى معالم الطريق .

وهذه الآيات تتضمن حقيقة هذا العون والمدد والتوجيه:

(إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً).

من الآية 24 الى الآية 26

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا (24) وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (25) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (26)

وهي اللفظة الأولى إلى مصدر التكليف بهذه الدعوة , وينبوع حقيقتها . . إنها من الله . هو مصدرها الوحيد . وهو الذي نزل بها القرآن . فليس لها مصدر آخر , ولا يمكن أن تختلط حقيقتها بشيء آخر لا يفيض من هذا ينبوع . وكل ما عدا هذا المصدر لا يتلقى عنه , ولا يستمد منه , ولا يستعار لهذه العقيدة منه شيء , ولا يخلط بها منه شيء . . ثم إن الله الذي نزل هذا القرآن وكلف بهذه الدعوة لن يتركها . ولن يترك الداعي إليها , وهو كلفه , وهو نزل القرآن عليه .

ولكن الباطل يتجح , والشر ينتفش , والأذى يصيب المؤمنين , والفتنة ترصد لهم ; والصد عن سبيل الله يملكه أعداء الدعوة ويقومون به ويصرون عليه , فوق إصرارهم على عقيدتهم وأوضاعهم وتقاليدهم وفسادهم وشرهم الذي يلجون فيه ! ثم هم يعرضون المصالحة , وقسمة البلد بلدين , والإلتقاء في منتصف الطريق . . وهو عرض يصعب رده ورفضه في مثل تلك الظروف العصبية !

هنا تجيء اللفظة الثانية:

(فاصبر لحكم ربك , ولا تطع منهم آثما أو كفورا).

إن الأمور مرهونة بقدر الله . وهو يمهل الباطل , ويملي للشر , ويطيل أمد المحنة على المؤمنين والابتلاء والتمحيص . . كل أولئك لحكمة يعلمها , يجري بها قدره , وينفذ بها حكمه . . (فاصبر لحكم ربك). . حتى يجيء مواعده المرسوم . . اصبر على الأذى والفتنة . واصبر على الباطل يغلب , والشر ينتفج . ثم اصبر أكثر على ما أوتيته من الحق الذي نزل به القرآن عليك . اصبر ولا تستمع لما يعرضونه من المصالحة والالتقاء في منتصف الطريق على حساب العقيدة: (ولا تطع منهم آثما أو كفورا). . فهم لا يدعونك إلى طاعة ولا إلى بر ولا إلى خير . فهم آثمون كفار . يدعونك إلى شيء من الإثم والكفر إذن حين يدعونك إلى الالتقاء بهم في منتصف الطريق ! وحين يعرضون عليك ما يظنونونه يرضيك وبغريك ! وقد كانوا يدعونه باسم شهوة السلطان , وباسم شهوة المال , وباسم شهوة الجسد . فيعرضون عليه مناصب الرياسة فيهم والثراء , حتى يكون أغنى من أغناهم , كما يعرضون عليه الحسان الفاتنات , حيث كان عتبة بن ربيعة يقول له: " ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ابنتي , فإنني من أجمل قريش بنات ! " . . كل الشهوات التي يعرضها أصحاب الباطل لشراء الدعاة في كل أرض وفي كل جيل !

(فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا). . فإنه لا لقاء بينك وبينهم ; ولا يمكن أن تقام قنطرة للعبور عليها فوق الهوة الواسعة التي تفصل منهجك عن منهجهم , وتصورك للوجود كله عن تصورهم , وحقك عن باطلهم , وإيمانك عن كفرهم , ونورك عن ظلماتهم , ومعرفتك بالحق عن جاهليتهم !

اصبر ولو طال الأمد , واشتدت الفتنة وقوي الإغراء , وامتد الطريق . .

ولكن الصبر شاق , ولا بد من الزاد والمدد المعين:

(واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا , ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا).

هذا هو الزاد . اذكر اسم ربك في الصباح والمساء , واسجد له بالليل وسبحه طويلا . . إنه الاتصال بالمصدر الذي نزل عليك القرآن , وكلفك الدعوة , هو ينبوع القوة ومصدر الزاد والمدد . . الاتصال به ذكرا وعبادة ودعاء وتسبيحا . . ليلا طويلا . . فالطريق طويل , والعبء ثقل . ولا بد من الزاد الكثير والمدد الكبير . وهو هناك , حيث يلتقي العبد بربه في خلوة وفي نجاء , وفي تطلع وفي أنس , تفيض منه الراحة على التعب والضنى , وتفيض منه القوة على الضعف والقلة . وحيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل , وترى

من الآية 27 الى الآية 27

إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (27)

عظمة التكليف , وضخامة الأمانة . فتستصغر ما لاقت وما تلاقي من أشواك الطريق !

إن الله رحيم , كلف عبده الدعوة , ونزل عليه القرآن , وعرف متاعب العبء , وأشواك الطريق . فلم يدع نبيه [ص] بلا عون أو مدد . وهذا هو المدد الذي يعلم - سبحانه - أنه هو الزاد الحقيقي الصالح لهذه الرحلة المضنية في ذلك الطريق الشائك . . وهو هو زاد أصحاب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل . فهي دعوة واحدة . ملابساتها واحدة . وموقف الباطل منها واحد , وأسباب هذا الموقف واحدة . ووسائل الباطل هي ذاتها ووسائله . فلتكن وسائل الحق هي الوسائل التي علم الله أنها وسائل هذا الطريق .

والحقيقة التي ينبغي أن يعيش فيها أصحاب الدعوة إلى الله هي هذه الحقيقة التي لقنها الله لصاحب الدعوة الأولى [ص] هي أن التكليف بهذه الدعوة تنزل من عند الله . فهو صاحبها . وأن الحق الذي تنزلت به لا يمكن مزجه بالباطل الذي يدعو إليه الآثمون الكفار . فلا سبيل إلى التعاون بين حقها وباطلهم , أو الالتقاء في منتصف الطريق بين القائم على الحق والقائمين على الباطل . فهما نهجان مختلفان , وطريقان لا يلتقيان . فأما حين يغلب الباطل بقوته وجمعه على قلة المؤمنين وضعفهم , لحكمة يراها الله . . فالصبر حتى يأتي الله بحكمه . والاستمداد من الله والاستعانة بالدعاء والتسبيح - ليلا طويلا - هي الزاد المضمون لهذا الطريق . .

. . إنها حقيقة كبيرة لا بد أن يدركها ويعيش فيها رواد هذا الطريق . .

الدرس الرابع: 27 غفلة الكفار عن الآخرة ومحبتهم للعاجلة

ثم يمضي السياق في توكيد الافتراق بين منهج الرسول [ص] ومنهج الجاهلية . بما يقرره من غفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم , ومن تغاهة اهتماماتهم , وصغر تصوراتهم . . يقول:

(إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) .

إن هؤلاء , القريبى المطامح والاهتمامات , الصغار المطالب والتصورات . . هؤلاء الصغار الزهيدى الذين يستغرقون فى العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا . ثقيلا بتبعاته . ثقيلا بنتائجه . ثقيلا بوزنه فى ميزان الحقيقة . . إن هؤلاء لا يطاعون فى شيء ولا يتبعون فى طريق ; ولا يلتقون مع المؤمنين فى هدف ولا غاية , ولا يؤبه لما هم فيه من هذه العاجلة , من ثراء وسلطان ومتاع , فإنما هى العاجلة , وإنما هو المتاع القليل , وإنما هم الصغار الزهيدون !

ثم توحى الآية بغفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم . فهم يختارون العاجلة , ويذرون اليوم الثقيل الذي ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير , بعد الحساب العسير !

فهذه الآية استطراد فى تثبيت الرسول [ص] والمؤمنين معه , فى مواجهة هؤلاء الذين أوتوا من هذه العاجلة ما يحبون . إلى جانب أنها تهديد ملفوف لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل .

الدرس الخامس: 28 ضعف الكفار أمام قدرة الله

يتلو ذلك التهوين من أمرهم عند الله الذي أعطاهم ما هم فيه من قوة وبأس , وهو قادر على الذهاب بهم وتبديل غيرهم منهم . ولكنه يتركهم لحكمة يجري بها قدره القديم:

(نحن خلقناهم وشددنا أسرهم , وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) .

وهذه اللفظة تذكر هؤلاء الذين يعتزون بقوتهم , بمصدر هذه القوة , بل مصدر وجودهم ابتداء . ثم تطمئن الذين آمنوا - وهم فى حالة الضعف والقلّة - إلى أن واهب القوة هو الذي ينتسبون إليه وينهضون بدعوته . كما

من الآية 28 الى آخر السورة

تَخُنْ خَلْقَنَاهُمْ وَشَدَدْنَا آسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (28) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (29) وَمَا تَشَاوُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (30) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالطَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (31)

تقرر فى نفوسهم حقيقة قدر الله وما وراءه من حكمة مقصودة , هى التى تجري وفقها الأحداث حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

(وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) . . فهم لا يعجزون الله بقوتهم , وهو خلقهم وأعطاهم إياها . وهو قادر على أن يخلق أمثالهم فى مكانهم . . فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومنته وهو قضاؤه وحكمته . .

ومن هنا تكون الآية استطرادا فى تثبيت الرسول [ص] ومن معه ; وتقريراً لحقيقة موقفهم وموقف الآخرين . . كما أنها لمسة لقلوب هؤلاء المستغرقين فى العاجلة , المغترين بقوة أسرهم , ليذكروا نعمة الله , التى يتبطرون بها فلا يشكرونها ; وليشعروا بالابتلاء الكامن وراء هذه النعمة . وهو الابتلاء الذي قرره لهم فى مطلع السورة .

الدرس السادس: 29 - 31 الهداية والتذكرة بيد الله يهبهما لمن يطلبهما

ثم يوقظهم إلى الفرصة المتاحة لهم , والقرآن يعرض عليهم , وهذه السورة منه تذكركم:

(إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) .

ويعقب على هذه اللفظة بإطلاق المشيئة , ورد كل شيء إليها , ليكون الاتجاه الأخير إليها , والاستسلام الأخير لحكمها ; وليبرأ الإنسان من قوته إلى قوتها , ومن حوله إلى حولها . . وهو الإسلام في صميمه وحقيقته:

وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما . .

ذلك كي تعلم قلوب البشر أن الله هو الفاعل المختار , المتصرف القهار , فتتعلم كيف تتجه إليه وتستسلم لقدره . . وهذا هو مجال هذه الحقيقة الذي تجري فيه في مثل هذه النصوص . مع تقرير ما شاءه الله لهم من منحهم القدرة على إدراك الحق والباطل ; والاتجاه إلى هذا أو ذاك وفق مشيئة الله , العليم بحقيقة القلوب , وما أعان به العباد من هبة الإدراك والمعرفة , وبيان الطريق , وإرسال الرسل , وتنزيل القرآن . . . إلا أن هذا كله ينتهي إلى قدر الله , الذي يلجأ إليه الملتجئ , فيوفقه إلى الذكر والطاعة , فإذا لم يعرف في قلبه حقيقة القدرة المسيطرة , ولم يلجأ إليها لتعينه وتيسره , فلا هدى ولا ذكر , ولا توفيق إلى خير . . .

ومن ثم فهو:

(يدخل من يشاء في رحمته , والظالمين أعد لهم عذابا أليما) .

فهي المشيئة المطلقة تتصرف بما تريد . ومن إرادتها أن يدخل في رحمته من يشاء , ممن يلتجئون إليه , يطلبون عونه على الطاعة , وتوفيقه إلى الهدى . . (الظالمين أعد لهم عذابا أليما). وقد أملى لهم وأمهلهم لينتهوا إلى هذا العذاب الأليم !

وهذا الختام يلتئم مع المطلع , ويصور نهاية الابتلاء , الذي خلق الله له الإنسان من نطفة أمشاج , ووهبه السمع والأبصار , وهذاه السبيل إما إلى جنة وإما إلى نار . .